تَجْرِبَتِي فِي تَعلُّمِ اللُّغَةِ العَرَبيَّة

أ.د. رجب شانتورك - تركيا

رئيس جامعة ابن خلدون/ إسطنبول أستاذ علم الاجتماع السياسي

- حصل على الماجستير والدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة كولومبيا - الولايات المتحدة الإمريكية.

-عضو هيئة الأمناء في مؤسسة إسطنبول للتعليم والأبحاث ISAR.

-رئيس مجلس الإدارة في كلية والدة عتيق ISM، ورئيس مجلس الإدارة في مركز التميز العلمي EDEP.

-عمل عميدا لمعهد تحالف الحضارات في جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفية.

-له عشرات المؤلفات والمقالات المترجمة إلى أكثر من لغة، و شارك في عشرات المؤتمرات والندوات في جميع أنحاء العالم.

منذ أيام الطفولة كان الدافع الأساسي لتعلّمي اللُّغة العربيّة -في المقام الأول- فَهم القرآن الكريم وتدبّرَه، ولم أكن يومئذٍ قد بلغت الثانية عشرة من عمري.

وقد درست العربية على الطريقة التراثية المشيخية، فمن أساتذتي: أحد أصدقاء والدي، حيث بدأت العربية معه، وكان قد أتى إلى إسطنبول بهدف حضور مؤتمر علميّ فيها، فزارنا في دكّاننا وتعرّفت إليه آنذاك، والذي بدوره أبدى رغبته في تعليمي وتدريسي لمّا رآني مهتمًّا بقراءة الكتب.

ودرست عليه علم التجويد والقراءة، ثم درست العربية على المنهج العثماني:

الكتاب الأول: (الأمثلة) وهو كتاب في الأوزان الصرفية، كان يُدرّس في العهد العثماني في المدارس، وكان آنذاك مكتوبًا بخطٍّ يدويّ أشبه بمخطوطة تاريخيّة، درسته مع الأستاذ، وحفظت جميع الأوزان الصرفية وتمكّنت منها كلّها.

في الحقيقة كان هذا مفيدًا جدًّا لي، لأنّني أعتقد أنّه بعد تعلّم الأوزان وعلم التصريف فإنّ الطالب يستطيع استخراج الكلمات والأوزان الصرفية والاشتقاقات اللغويّة، وهذا ما حدث معي بالفعل، فسهّلت علي دراسة هذه المجموعة الكثير خلال تجربتي في تعلّم العربية.

الكتاب الثاني: (البناء) وكان موضوعه الأفعال المزيدة كالرباعي والمزيد على الثلاثي ...الخ وكان هذا الكتاب يتألّف من ٣٥ بابًا، ومن يتعلم البناء فإنّه سيتعلم كيف يحول الأفعال الثلاثية إلى رباعية وخماسية وسداسية، وهذا بالتأكيد مفيد جداً، ويمكّن الطالب من معرفة معاني هذه الأبواب الصرفية، مثل باب الإفعال و الاستفعال...الخ.

الكتاب الثالث: (المقصود) وكان حول الأفعال المعتلّة، وكيفيّة تصريف الأفعال الثلاثيّ منها والرباعيّ، وكيف نستخرج الأمر من الفعل المعتل، وهذه تسمى قواعد الإعلال، وكما هو معلوم فهناك سبعة أقسام للفعل، ومن يدرس (المقصود) يتعلم

كيف يصرّف هذه الأبواب وكيف يزيد عليها.

هذه الكتب الثلاثة في الصرف. ويبدأ الطالب - حسب المنهج العثماني - بالصرف ثم ينتقل إلى النحو، ولذلك درست مع الأستاذ بعد ذلك:

الكتاب الرابع: (العوامل) للإمام البركوي، وهو كتاب كان يدرَّس في المدارس العثمانيّة لقرون متطاولة، وفي هذا الكتاب ١٠٠ قسم بشكل منّظم ومرّتب، ويمتلك المتعلِّم ناصية علم النحو بعد دراسته وفهمه. وبحمد الله فقد فهمتُ هذا الكتاب وحفظته، وتعلمت الإعراب والبناء.

الكتاب الخامس: (إظهار الأسرار) للإمام البركوي أيضاً، وكان في هذا الكتاب شرح للعوامل والأبواب النحويّة، لكن هذا الكتاب كان بالنسبة لي أكثر تعقيداً من سابقه، وكان فلسفيًّا بعض الشيء، وصعب عليّ فهمه في البداية واستغلق، إلّا أنني رغم كلّ ذلك- لا أزال وإلى الآن أتذكر شيئاً من ذلك الكتاب:

مثال: تعريف العامل: هو ما يقتضي كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب بواسطة، أي توارد المعاني المختلفة على الكلمة، وكان هذا صعبًا على طفل مثلي يبلغ من العمر ١٢ سنة، وشكّل ذلك لي تحدّيًا، فقلت في نفسي: لماذا لا أستطيع فهم هذا الكتاب؟! وقد كنت في ذلك الوقت طالبًا مجتهدًا في المدرسة، وأحب الدراسة والتعلّم وقراءة الكتب بشكل كبير، فقرّرت شراء كتب متعلّقة بالنّحو والصرف وكل ما يساعدني على فهم هذا الكتاب، وكانت كل تلك الكتب باللغة العربية، لكن -ولله الحمد- فقد كنت أمتلك القدر الكافي من الجرأة والجسارة لأتغلّب على تلك العقبات وألّا أستسلم من المرة الأولى، وكثيراً ما كنت أردّد القول بأنّه لا يوجد شيء لا أستطيع فهمه، فاشتريت -كما ذكرت- جميع الشروح والحواشي وكتاب المعرب، وكان هذا للطلاب في الجامعات وليس للصغار، وكانت عربيّتي في ذلك الوقت ضعيفة، فكنت أحاول أن أقرأ لكنني لم أكن أفهم شيئًا.

في ذلك الوقت كان يسكن فوق شقّتنا عالم كبير اسمه أمين عاشق كوتلو، وكان يدرّس الكثير من الطلّاب الذين تتلمذوا على يديه حتّى صاروا علماء؛ وكان أيضا ثمّة معهد في منطقة «الحسكة» وكان يسمّى كلّيّة جرّاح باشا، وكان المفتون والعلماء يأتون إلى هناك ليدرسوا ويختصوا في هذا المركز التخصّصي على يد عالم كبير القدر جاوز الثمانين، وكان أحيانًا يراني على الدرج حين كنت أذهب إلى هناك، وذات مرة قال لي: إذا صادفت أية مشكلة تعال وزرني واسألني ما تحتاج السؤال عنه. فوجدت ذلك فرصة لي لا تفوّت، فأنا -كما ذكرت- لم أكن أفهم من هذا الكتاب شيئًا، فقلت في نفسي: سأذهب إلى شقّته، وفعلا ذهبتُ إليه، وطرقت الباب، خرج إليّ حفيده، وقال : من أنت؟ فقلت له: أنا جاركم، وجئت أسأل الشيخ سؤالًا، فقال: وعن أي شيء؟ قلت: من كتاب الإظهار، فتعجّب الشاب كثيراً، وقال: أنت تقرأ الإظهار؟ فقلت له؛ نعم أنا أقرأ هذا الكتاب، فقال لي: وأنا أيضا أقرأه، وكان شابًّا ليس بالصغير، فكان الأمر عجيبًا بالنسبة لي، وقلت في نفسي: لماذا تأخر هذا الرجل في قراءة هذا الكتاب إلى سنّ الجامعة؟! بعد ذلك أخذني إلى غرفة الشيخ، وكان الشيخ قد وصل لتوه من العمل متعباً، فدخل عليه وقال له: يا جدي جارنا قد أتى يريد أن يسألك بعض الأسئلة حول كتاب الإظهار، وكان الشيخ مستلقياً، فلما سمع بأن طالباً جاء ليسأل أسئلة علمية، جلس وعدل جلسته ولبس عمامته، ورتب لباسه، وتوجه إلي وقال تفضل يا (ملا) اسأل سؤالك.

فقلت له: يا شيخ ما معنى الواسطة في قول البركوي في كتابه الإظهار في تعريف العامل: هو ما يقتضي كون آخر الكلمة على وجه مخصوص من الإعراب بواسطة، أي توارد المعاني المختلفة على الكلمة؟ فنظر إليّ، ثم نزع عمامته واستلقى مرة ثانية وقال: يا بني أنت ستفهم هذه الأشياء عندما تكبر! ثم سألني عن معرفتي بكيفية كتابة الخط العربيّ اليدويّ. فأجبته بالنفي. فبدأ يدرّسني كيفية كتابة الخط العربيّ، ولم يشرح لي ما

معنى الواسطة لأن هذا كان معقدًا. بعد ذلك تعرّفت إلى هذا الشيخ أكثر، وانتقلت إلى مرحلة جديدة في الدراسة:

الكتاب السادس: (شرح قطر الندى)، حيث اقترح عليّ الشيخ أن أقرأ معه هذا الكتاب، فأصبحت في ذلك الوقت أدرس الكتابين معًا، (الإظهار والقطر) فتعرفت إلى هاتين المدرستين المختلفتين مدرسة ابن عقيل ومدرسة ابن هشام، وطُرق كل واحد منهما وأساليبه، وكانت هذه المقارنة مفيدة إلى أبعد حدّ .

الكتاب السابع: (الكافية في النحو) لابن الحاجب وله شرح لعبدالرحمن الجامي، عالم وفيلسوف كبير من أذربيجان، مشهور بـ (ملا جامي) ولّما قرأت هذا الكتاب استمتعت كثيراً، وكان يحوي فلسفة اللغة وأشياء عميقة.

وعندما كنت أدرس كتاب شرح قطر الندى مع الشيخ بدأ يدرسني أيضاً كتاب (مختصر القدوري) في الفقه الحنفي، وكان آنذاك يشرح باللغة التركية، وفجأة في أثناء الدرس بدأ يتكلم بالعربية، وسألني في آخر الدرس: كم فهمت؟ قلت له: يعني ٥٠ أو ٦٠ بالمئة، قال لي: لا مشكلة. واستمر على هذا النحو في الإعطاء، وبعد ثلاثة أسابيع أو أربعة سألني: كم فهمت؟ قلت له: ١٠٠ بالمئة وكان عمري في ذلك الوقت ١٤ أو ١٥ سنة تقريباً. فالحمد لله؛ لأن الشيخ كان متقنًا جداً في التدريس، وكان يعطيني لكل كلمة مترادفات كثيرة وهذا أفادني كثيراً.

هذا كله في القواعد العربية، ومن خلال تلك الدروس استفدت كثيراً في مجال بنائي للمفردات العربية، لأن قراءة هذه الكتب وقراءة شروحها أيضاً يشكل عند الطالب خزّان مفردات، يعني مثلاً حين يقرأ الطالب قطر الندى فإن الأشعار والشروح التي يحويها هذا الكتاب تعطيه مفردات واسعة. ولم أكن أستعمل القاموس للترجمة كثيراً، لأن الشيخ كان يشرح كل شيء.

بعد ذلك انغمست في العربية، حين طلب مني الشيخ ألا أقرأ كتبًا تركية، وأنّ

الواجب عليّ أن أحاول قراءة الكتب العربية، وقد بدأت بالفعل بهذا؛ لشغفي بقراءة الكتب، وبما أن الشيخ منعني من قراءة الكتب التركية وترك لي طريقًا وحيدة للقراءة -وهي قراءة الكتب العربية- فقد حاولت فعلاً تطبيق هذا بحماس كبير؛ فذهبت إلى السوق واشتريت كتبًا مثل كتاب تفسير أبي السعود أفندي، وكان يوجد في البداية تفسير لسورة الفاتحة فقلت في نفسي: آه! ما أسهل قراءة سورة الفاتحة! وبدأت القراءة في التفسير، ولكن من الصباح إلى المساء لم أفهم شيئًا، فقلت: سأحاول قراءة سورة الإخلاص فربّما هي أسهل، وفعلاً قرأتها وبدأت بقراءة التفسير ولكن أيضاً لم أفهم شيئًا! فقلت: ما هذه اللغة الصعبة! بعد ذلك شرعت في شراء الكتب العربية الحديثة والقديمة ومحاولة القراءة فيها؛ طبعاً هذا ما يُطلَق عليه عند في تدريس اللغات في زماننا: (الانغماس اللغوي)، وفعلاً كان هذا مفيداً جداً لي كمنهج. وطبعاً بعد سنة ونيّف لم يعد لدي مشكلة في فهم العربية، وبدأت بعد ذلك في قراءة كتب المنطق والتفسير، كتفسير النسفي وبعض الكتب الحديثة والفقه وكتب اللغة.

وكل ما مضى كان مفيدا لي من حيث إتقان القراءة والفهم والاستماع، إلا أن المحادثة تطورت عندي بفضل دكان والدي، الذي كان قريبا من جامعة جرّاح باشا، وكنت آتي من المدرسة إلى المحل، وكان يوجد بعض الطلاب العرب يدرسون الطب في نفس الجامعة، وكانوا يأتون إليَّ عندما يحتاجون أي شيء، فكنت أساعدهم، وكنت أحياناً ألتقي مع بعض السياح، فأمارس العربية وأتقصد ذلك حتى تطورت محادثتي.

وظهرت أثر هذه التنمية عندما جاء أحد الأساتذة في مدرستنا من العمرة وبدأ يتكلّم بالعربية مع الطلاب وسط اندهاشهم، وكأنه كان يريد أن يظهر نفسه بأنه يُحسِن التكلم بالعربية وكان الطلاب يستمعون إليه معجبين، ولكن فجأة بدأت أنا بالكلام معه بالعربية، عندها أصابته صدمة وتفاجأ بشكل واضح، فقال لي: من أين تعرف العربية؟ قلت له: أنا أعرف التكلم بها جيّداً. فقال: ولماذا لم تخبرني لكي أعطيك أعلى

علامة؟ فقلت له: بالنسبة لي العلامة ليست مهمة، المهم هو العِلم.

تعلّمت العربية من خلال منهج عثماني صحيح، وهو في رأيي من أفضل المناهج في العالم وأيسرها، ومن أقصر الطرق إلى تعلّم العربية، لأنني -في الحقيقة- سافرت إلى بلاد عربية وأخرى عالمية، وسافرت إلى الهند مرّات ورأيت الكثير من المناهج، وأنا أتحدى أي منهج أن يكون أفضل من المنهج العثماني؛ ففي العهد العثماني كان على كل موظف حكومي أن يعرف ثلاث لغات، فكانت الفارسية لغة الأدب، والعربية لغة العلم، والتركية لغة الإدارة، ومن لا يتقن هذه اللغات كان لا يعدّ من المثقفين المتعلمين، فقد كانت ضرورية ليعدّ الإنسان مثقفًا وذا مكانة علمية واجتماعية محترمة، فكان يجب أن يعرف الأشعار وإنشادها، طبعاً هكذا كان يقيّم الإنسان في ذاك الوقت، فلقد رأيت المنهج الأمريكي، وكنت أشاهد الطلاب كيف يتعلمون العربية في جامعة كولومبيا، وكان يعانون من ذلك أشدّ المعاناة، أما المنهج العثماني فما عليك إلّا حفظ عدد معين من صيغ التصريف والأبواب النحوية، والتي بكل تأكيد ستسهّل عليك التعلم بسرعة والتمكّن من اللغة، وإنّني و بعد تجربة طويلة أعتقد أن المنهج العثماني مرتّب وواضح وقوي.

ونظرة بعض الباحثين إلى الطريقة العثمانية بناء على ما يشاهدونه من بعض الأساتذة الذين لا يتقنون المحادثة وغيرها: ليست نظرة شاملة، فإن اعتقادي أن هؤلاء الأساتذة لم يدرسوا هذا المنهج الصحيح بشكل جيد، لأن المنهج العثماني الصحيح يتطلب الصبر والمثابرة والاستمرار، عكس ذلك فلن تحصّل نتيجة مفيدة؛ فأنا صبرت وتابعت ولم أترك، فالناس يتركون ولا يستمرون، كذلك أيضاً أنا لم أدرس النحو والصرف فقط، بل درست النصوص أيضاً فكان الأستاذ يعطيني المترادفات والمفردات، وكذلك فإن جل هؤلاء لم يمارسوا اللغة، ولم يطبقوها بشكل عملي، ولا يستطيعون ربط المفردات في عقولهم، فيبقى تعلم اللغة عندهم كثقافة.

فالمنهج العثماني يتجه بالطالب إلى ما كان يسمى قديماً «كسب الملكة» فيجب على الطالب أن يكسب الملكة، لذلك المنهج العثماني يعتمد على «كسب ملكة اللغة» وأعتقد أن الكثير منا لا يعرف الفرق بي التعلّم وكسب الملكة، فالطالب بعد كسب الملكة سيطبق الفرق بين هذا وبين مجرد التعلم والمعرفة، وقد فصل ابن خلدون في ذلك طويلا، فنستطيع أن نقول: إن المنهج العثماني في تعليم العربية لا يقتصر على تعميم القاعدة فقط، بل كان يحاول أن يكسب الطالب الملكة؛ فأنا كنت أطبق كثيراً من التمارين وأقوم بتحليل النصوص التي أدرسها وتطبيق النحو عليها.

وقد شاعت مقولة في زماننا -بخصوص تعلم اللغة- تقول: إن تعليم المفردات أهم من تعليم القواعد؛ لأن المفردات في النص الكلاسيكي شيء أساسي في الفهم أكثر من القواعد، لكن يمكنني الرد عليها بأنني ما درست أي نص كلاسيكي أو فقهي لأجل تعلم اللغة العربية فقط، لا بل كنت أتعلم العِلم واللغة بنفس الوقت، فأرى بأن المدرسة العثمانية قد قدّمت تعليم الصرف على النحو؛ لأن المفردة هي الأساس، وأعتقد أن العثمانيين ما فعلوا شيئًا إلا بعد تجربة وخِبرة طويلة جداً، ودائماً هناك منطق وحكمة وراء منهجهم؛ فكانوا يعلّمون المفردات دون التعرُّض بشكل مباشر للنحو، بل عن طريق قراءة النصوص وترجمتها، وعن طريق النحو والترجمة والتحليل.

إن المدّة التي احتجتها لإتقان العربية حوالي الخمس سنوات يعني من ١١ إلى ١٦ سنة حتى استطعت أن أفهم كلام شيخي مئة بالمئة، وإن أكثر ما حافظ على محادثتي أنني بعد هذه المدة لم انقطع عن اللغة، بل على العكس من ذلك فقد قمت بتدرّيس العربية من نحو وقواعد وصرف في مدارس عديدة.

وأما اهتمام المجتمع بتعليم العربية في زمن تعلّمي العربية فلم يكن هناك أي نوع من أنواع الاهتمام إلا من قبل المتديّنين والعلماء، وكان تدريسها ممنوعاً إلا في بعض

مدارس الأئمة والخطباء.

وقد أثر إتقان اللغة العربية في حياتي الشخصية والعلمية فقد كان هدفي منذ البداية فهم القرآن الكريم، فهذا يسهّل عليّ تدبُّره والتفكّر فيه، والذي سيؤثر في المتعلم لا محالة من جميع نواحي الحياة، ويجعله إنساناً كاملاً وعاقلاً حكيماً، وأيضاً أثّر ذلك كثيراً من حيث الحياة العملية والوظيفية، فأنا الآن الشخص الثاني فقط ممن يرأسون بعض الجامعات ويتكلمون العربية ويتقنونها، وهذا يسهّل عليّ التواصل مع المحيط العربي والجامعات العربية؛ لأنّه بالعادة يأتي إلينا زوار، وهذا أفادني كثيراً وساعدني على التواصل، كما أنه ساعدني في الأبحاث التي أقوم بها شخصياً.

وأما التحديات التي تواجه تعليم العربية في الوقت الحاضر فهي:

أولاً: قضية المناهج، فأنا أعتقد أن هذه المناهج الجديدة -التي ليست نتيجة عمل وفلسفة علمية واضحة- من أكبر التحديات؛ فهذا يضيع وقت الطلاب ويتسبب بفشله ومنعه من تحقيق هدفه.

ثانياً: مسألة الأساتذة الذين يدرّسون العربية وهم أنفسهم لا يتقنون هذه اللغة، يعني هذه أيضاً من المشكلات بشكل عام جلُّ هذه التحديات تكمن في الأساتذة والمنهج.

وأرى أن تدريب الأساتذة على أساليب التدريس الحديثة بشكل جيد ومتقن قليل هنا، ولذلك يمكن أن ينقلب بعض الناس الذين يرغبون بدراسة اللغة عندما لا يرون كتابًا جيدًا ولا أستاذًا جيدًا، ومن ثم يقولون: إن هذه اللغة صعبة ولا يستطيعون تعلّمها، وأخاف أن يستقر في أذهان الناس أن هذه اللغة صعبة التعلم، واستمرار هذا الاعتقاد سيكون خطيراً جداً.

وأما رؤيتنا في جامعة ابن خلدون لتعليم العربية فممّا لاشكّ فيه بأننا -وبعد هذه السنوات- انتقلنا إلى مرحلة جديدة في تعلم اللغة العربية، خاصة نحن هنا في جامعة

ابن خلدون، وانفردنا بأن جعلناها شرطاً للتخرّج، وعلى الطالب في جامعتنا أن يصل إلى المستوى المتقدم الأدنى على أقل احتمال حتى يتخرج، وإن شاء الله نحن سنصنع منهجاً جديداً لتعليم اللغة العربية للمسلمين تحت عنوان العربية للحياة والتراث، وأقمنا وعقدنا الندوات والمؤتمرات ولا نزال مستمرين في ذلك، دون ادّخار أي جهد لتحقيق هذا المشروع الكبير بإذن الله، ولقد أنشأنا مركزًا مخصّصاً لمتابعة العمل حتى تحقيقه وإنجازه على أتمّ وجه؛ سائلين الله عزّ وجلّ التوفيق والسداد .